

خَلْقُ أَمِّ فَوْضَى: الْعِلْمُ الْحَدِيثُ وَوُجُودُ اللَّهِ

المحاضرة ٦: ضَرُورَةُ وُجُودِ اللَّهِ

أ. ر. سي. سرول

مُنْذُ بَضْعِ سَنَوَاتٍ شَارَكْتُ فِي تَأْلِيفِ كِتَابٍ عَنِ الدِّفَاعِيَّاتِ مَعَ آرْتُرْ لِينْسْلِي (Arthur Lindsley) وَعَلَى رَأْسِنَا د. جُونُ جِيرْسْتِنَرْ (John Gerstner) بِعُنْوَانِ "الدِّفَاعِيَّاتُ الْكَلَّاسِيكِيَّةُ" (Classical Apologetics). وَجُزْءٌ مِنْ مَسْئُولِيَّتِي فِي ذَلِكَ الْكِتَابِ اقْتَضَى مِنِّي كِتَابَةَ الْأَجْزَاءِ الْإِفْتِتَاحِيَّةِ عَنِ نَظَرِيَّةِ الْمَعْرِفَةِ الْمَسِيحِيَّةِ، وَمُحَاوَلَةَ الْإِجَابَةِ عَنِ سُؤَالٍ: "كَيْفَ نَعْرِفُ مَا نَعْرِفُهُ؟ وَكَيْفَ يُمَكِّنُ أَنْ نَتَعَلَّمَ مَا نَتَعَلَّمُهُ؟" وَأَفَرَزْتُ بَعْضَ الْأُمُورِ غَيْرِ الْقَابِلَةِ لِلتَّفَاوُضِ، قَائِلًا إِنَّ ثَمَّةَ مَبَادِيءٍ مُعَيَّنَةٍ عَلَى الْمَسِيحِيِّينَ أَوْ أَيِّ شَخِصٍ آخَرَ أَلَّا يَتَّفَاوَضُوا الْبَتَّةَ بِشَأْنِهَا إِذَا كَانُوا مُهْتَمِّينَ بِجِدَّةٍ بِاكتِشَافِ الْحَقِّ. وَذَكَرْتُ أَنَّ تِلْكَ الْفَرْضِيَّاتِ أَوْ الْإِفْتِرَاضَاتِ الْمَعْرِفِيَّةِ الْأَسَاسِيَّةِ تَشْمَلُ أَرْبَعَةَ أُمُورٍ. الْأَمْرُ الْأَوَّلُ هُوَ قَانُونُ عَدَمِ التَّنَاقُضِ، الَّذِي نَحَدِّثُنَا عَنْهُ فِي الْمَنْطِقِ - أَيِّ نِصْفِ الْمَنْهَجِ الْعِلْمِيِّ. الْأَمْرُ الثَّانِي هُوَ قَانُونُ السَّبَبِيَّةِ، الَّذِي سَنَتَنَاوَلُهُ الْيَوْمَ. وَالثَّلَاثُ هُوَ افْتِرَاضُ الْمُوثُوقِيَّةِ الْأَسَاسِيَّةِ لِلدِّرَاكِ الْحَسِّيِّ. وَالرَّابِعُ هُوَ الْإِسْتِخْدَامُ التَّشْبِيهِيُّ لِلْعَمَةِ، الَّذِي سَنَتَخَطَّاهُ الْيَوْمَ تَمَامًا، لِكِنَّهُ شَرْطٌ أَسَاسِيٌّ حَتَّى يَتَسَنَّى لِلنَّاسِ أَنْ يَتَكَلَّمُوا مَعًا، وَأَنْ تَكُونَ لَدَيْهِمْ أَرْضِيَّةٌ مُشْتَرَكَةٌ، وَإِطَارٌ مَرْجِعِيٌّ مُشْتَرَكٌ.

تَتَنَاوَلْنَا حَتَّى الْآنَ دَوْرَ الْمَنْطِقِ فِي كُلِّ هَذَا الْجَدَلِ حَوْلَ عِلْمِ الْكُونِيَّاتِ. وَحِينَ أَنْحَدْتُ عَنِ الْمُوثُوقِيَّةِ الْأَسَاسِيَّةِ لِلدِّرَاكِ الْحَسِّيِّ، أَدْرِكُ، مِثْلَمَا تُدْرِكُونَ جَمِيعًا، أَنَّهُ يُمَكِّنُ لِحَوَاسِنَا أَنْ نَحْدَعَنَا، وَلِبَصَرِنَا أَنْ يَحْدُلَنَا، وَلَسَمِعِنَا أَنْ يَكُونَ ثَقِيلًا، إِلَى آخِرِهِ. وَأَنْتَا عُرْضَةٌ لِلخَطْأِ فِي تَصَوُّرِنَا عَنِ الْعَالَمِ الْخَارِجِيِّ. وَلِلْأَسْفِ، نَحْنُ عَالِقُونَ، لِأَنَّ وَسِيلَةَ الْإِنْتِقَالِ الْوَحِيدَةَ مِنْ ذَهْنِي إِلَى الْعَالَمِ الَّذِي أَعِيشُ فِيهِ هُوَ جَسَدِي. هَذِهِ هِيَ الْوَسِيلَةُ الْوَحِيدَةُ لِلتَّوَاصُلِ مَعَ الْوَاقِعِ الْخَارِجِيِّ. وَهَذَا يَنْطَبِقُ عَلَيْنَا جَمِيعًا. لَكِنْ مَا يَعْنِينِي الْيَوْمَ بِالْأَكْثَرِ هُوَ الْأَمْرُ الثَّانِي: قَانُونُ السَّبَبِيَّةِ. لِأَنِّي قُلْتُ إِنَّ مُعْظَمَ مُنْتَقِدِي فِكْرَةَ نَشْأَةِ الْكُونِ نَتِيَجَةٌ فِعْلٌ خَلَقَ إِلَهِي يَلْجُؤُونَ إِمَّا إِلَى مَبْدَأِ الْلاَحْتِمِيَّةِ فِي فِيزِيَاءِ الْكَمِّ أَوْ إِلَى نَقْدِ فِلْسَفِيٍّ لِلْسَّبَبِيَّةِ. وَتَبْدَأُ الْحُجَّةُ عَادَةً بِاِحْتِكَامِ إِلَى الْفِيلْسُوفِ الْإِسْتِثْنَائِيِّ دَيْفِيدِ هِيُومِ، الَّذِي عَاشَ فِي اسْكُوتْلَنْدَا فِي الْقَرْنِ الثَّامِنِ عَشَرَ، وَالَّذِي قَادَ فِي الْأَسَاسِ التَّجْرِبِيَّةَ الْبْرِيطَانِيَّةَ إِلَى مَا يُسَمَّى بِمَقْبَرَةِ الشُّكُوكِيَّةِ، مِمَّا أَيْقَظَ "كَانَتْ" مِنْ سُبَاتِهِ الْعَقِيدِيَّ لِصِيَاغَةِ مَنَهْجِيَّةِ فِلْسَفِيَّةٍ جَدِيدَةٍ. لَكِنْ مَا كَانَ اسْتِفْزَارِيًّا بِشِدَّةٍ فِي عَمَلِ دَيْفِيدِ هِيُومِ هُوَ تَحْلِيلُهُ التَّفْدِيَّ لِلْسَّبَبِيَّةِ. لَا وَقْتُ لَدَيْنَا لِلخَوْضِ فِي التَّفَاصِيلِ، لَكِنِّي أُرِيدُ أَنْ نَتَمَكَّنَ عَلَى الْأَقْلَ مِنْ اسْتِيعَابِ الْفِكْرَةِ الْأَسَاسِيَّةِ لِمَا كَانَ دَيْفِيدِ هِيُومِ يَقُولُهُ.

كَانَتْ فَرَضِيَّتُهُ الْأَسَاسِيَّةُ كَالثَّالِي: أَتْنَا لَا نَحْطَى الْبَتَّةَ بِإِذْرَاكِ مُبَاشِرٍ لِلْسَّبَبِيَّةِ. نَحْنُ نَظُنُّ غَيْرَ ذَلِكَ، وَنَبْحَثُ بِاسْتِمْرَارٍ عَنِ أَسْبَابِ الْأَشْيَاءِ، وَنُلَاحِظُ مَا يَحْدُثُ مِنْ حَوْلِنَا. مَثَلًا، حِينَ نَشْهَدُ الْحَدَثَ الْمُعْتَادَ لِسُقُوطِ الْأَمْطَارِ وَتَبَلُّلِ الْعُشْبِ. مَاذَا نَفْتَرِضُ؟ وَمَا الْإِسْتِنْتِاجُ الَّذِي نَسْتَخْلِصُهُ؟ نَسْتَنْتِجُ أَنَّ سَبَبَ تَبَلُّلِ الْعُشْبِ هُوَ سُقُوطُ الْأَمْطَارِ، لِأَنَّهُ قَبْلَ سُقُوطِ الْأَمْطَارِ، لَمْ يَكُنِ الْعُشْبُ مُبْتَلًا، وَبَعْدَ سُقُوطِهَا تَبَلَّلَ. وَالْأَمْطَارُ نَفْسُهَا هِيَ بَلَّلٌ. لَيْسَ عَلَيْكَ أَنْ تَكُونَ عَالِمًا فَدًّا حَتَّى تَسْتَنْتِجَ وُجُودَ عِلَاقَةِ سَبَبِيَّةٍ هُنَا. لَكِنَّ "هَيُوم" يَقُولُ: "مَهَلًا، رُبَّمَا يَبْدُو الْأَمْرُ هَكَذَا لِلْعَيْنِ الْمُجَرَّدَةِ، لَكِنَّ رُبَّمَا تَجْرِي شَيْءٌ أَنْوَاعِ الْأُمُورِ غَيْرِ الْمَنْظُورَةِ الَّتِي نَعْجِزُ عَنْ إِذْرَاكِهَا". وَهُوَ قَطْعًا كَانَ يَدْحَضُ بِهَذَا بَعْضَ النَّظَرِيَّاتِ الَّتِي وَضَعَهَا سَابِقًا فِي الْقَرْنِ السَّابِعِ عَشَرَ عَقْلَانِيَّوْنَ مِثْلَ دِيكَارْتِ وَلَيْبْنِيزِ (Leibniz) وَسَبِينُوزَا (Spinoza). لَا أُنْبِغِي التَّكَلُّمَ عَنْ هَؤُلَاءِ الْآنَ. كَانَ هَيُومُ يَقُولُ: "كُلُّ مَا نَرَاهُ هُنَا هُوَ عِلَاقَةٌ تَلَاصِقِيَّةٌ"، أَوْ مَا أَسْمَاهُ عِلَاقَةٌ اعْتِيَادِيَّةً. الْعِلَاقَةُ الْإِعْتِيَادِيَّةُ هِيَ عِلَاقَةٌ يَبْدُو أَنَّهَا تَرَاهَا تَتَكَرَّرُ كَثِيرًا جِدًّا، وَنَعْتَادُ عَلَى افْتِرَاضِ اسْتِمْرَارِهَا كَمَا كَانَتْ فِي الْمَاضِي. فَإِنَّا مُعْتَادُونَ، حِينَ نَخْلُدُ إِلَى التَّوْمِ لَيْلًا، عَلَى افْتِرَاضِ أَنَّ الشَّمْسَ الَّتِي غَابَتْ سَتَشْرِقُ مُجَدَّدًا فِي الصَّبَاحِ. لَسْنَا عَلَى يَقِينٍ بِأَنَّ الشَّمْسَ سَتَشْرِقُ عَدًّا، لَكِنَّا نَفْتَرِضُ ذَلِكَ فِي ثِقَةٍ بِنَاءً عَلَى الْعَدَدِ الْهَائِلِ مِنْ مَرَّاتِ اخْتِبَارِ هَذِهِ الْعِلَاقَةِ الْإِعْتِيَادِيَّةِ فِي الْمَاضِي. لَكِنَّ قَالِ هَيُومُ إِنَّا لَسْنَا عَلَى يَقِينٍ. لَسْنَا نَعْرِفُ حَقًّا سَبَبَ ذَلِكَ. وَكُلُّ مَا نَرَاهُ هُوَ عِلَاقَةٌ تَلَاصِقِيَّةٌ. نُشِيرُ عِلَاقَةَ التَّلَاصِقِيَّةِ إِلَى عِلَاقَةٍ يَتَّبَعُ فِيهَا حَدَثُ الْآخَرِ، أَوْ يَتَّبَعُ فِيهَا فِعْلُ الْآخَرِ، بِدَرَجَةٍ عَالِيَةٍ مِنَ التَّوَقُّعِيَّةِ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَحْيَانِ.

أَوْضَحَ هَيُومُ ذَلِكَ مِنْ خِلَالِ مِثَالِهِ التَّوَضِيحِيِّ الشَّهِيرِ عَنِ كُرَاتِ الْبِلْيَارْدُو عَلَى طَاوِلَةِ الْبِلْيَارْدُو. لِتَتَأَمَّلَ قَلِيلًا فِي لُعبَةِ الْبِلْيَارْدُو، وَتَرَ مَا يَجْرِي فِيهَا. لَدَيْنَا الطَّاوِلَةُ وَالْجُيُوبُ وَالْكَرَاتُ وَمَا إِلَى ذَلِكَ. وَالْهَدَفُ هُوَ ضَرْبُ الْكُرَةِ الْمَنْشُودَةِ لِتَسْقُطَ فِي أَحَدِ الْجُيُوبِ. إِذْنِ، أَبَدًا بِاسْتِعْمَالِ عَصَا الْبِلْيَارْدُو. هَذِهِ هِيَ الْأَدَاةُ، أَوْ "الْأُورْجَانُونُ"، لِلُعبَةِ الْبِلْيَارْدُو. فَإِنِّي لَا أَقِفُ وَالْقِي بِالْكَرَاتِ فِي أَرْجَاءِ الطَّاوِلَةِ، أَوْ أَنْفُخُ عَلَيْهَا، بَلْ أَسْتَعْمِلُ عَصَا الْبِلْيَارْدُو. إِذْنِ أَنَا أَقُومُ بِعَمَلٍ مُعَيَّنٍ. يُحْرَكُ ذِرَاعِي عَصَا الْبِلْيَارْدُو، فَأَضْرِبُ الْكُرَةَ الْبَيْضَاءَ بِعَصَا الْبِلْيَارْدُو. وَحِينَ أَضْرِبُ الْكُرَةَ الْبَيْضَاءَ. مَاذَا يَحْدُثُ؟ تَبْدَأُ بِالتَّدْحُرْجِ فَوْقِ الطَّاوِلَةِ، ثُمَّ تَصْطَدِمُ الْكُرَةَ الْبَيْضَاءَ بِالْكَرَةِ الْمَنْشُودَةِ. وَبَعْدَمَا تَصْطَدِمُ الْكُرَةَ الْبَيْضَاءَ بِالْكَرَةِ الْمَنْشُودَةِ، مَاذَا يَحْدُثُ لِلْكَرَةِ الْمَنْشُودَةِ؟ تَبْدَأُ بِالتَّحْرُكِ، وَنَحْنُ آمِلُونَ أَنْ تَتَحَرَّكَ بِاتِّجَاهِ الْجَيْبِ لِتَخْتَفِيَ دَاخِلَهُ، فَتَكُونَ قَدْ سَجَلْنَا النُّقْطَةَ الَّتِي نَحْوِلُ نَسْجِيلَهَا. كُلُّ هَذَا يَتَطَلَّبُ أَفْعَالًا وَتَفَاعُلَاتٍ نَفْتَرِضُ نَحْنُ أَنَّهَا مُتَّصِلَةٌ مَعًا بِفِعْلِ السَّبَبِيَّةِ. لَكِنَّ يَقُولُ هَيُومُ إِنَّ مَا نَرَاهُ هُوَ شَخْصٌ يُمَسِكُ بِعَصَا، ثُمَّ يَتَحَرَّكَ الشَّخْصُ وَالْعَصَا، ثُمَّ تَضْرِبُ الْعَصَا الْكُرَةَ، وَتَبْدَأُ الْكُرَةَ بِالتَّحْرُكِ، وَتَصْطَدِمُ الْكُرَةَ بِالْكَرَةِ الْمَنْشُودَةِ، ثُمَّ تَبْدَأُ الْكُرَةَ الْمَنْشُودَةَ بِالتَّحْرُكِ وَتَتَدْحُرْجُ لِتَسْقُطَ فِي الْجَيْبِ. وَمَاذَا نَفْتَرِضُ؟ نَفْتَرِضُ أَنَّ نَحْنُ مَنْ تَسَبَّبَ فِي ذَلِكَ. مِنْ أَيْنَ نَعْلَمُ مَثَلًا أَنَّ اللَّهَ لَمْ يَفْضِ مِنْذُ الْأَزَلِ بِأَنَّهُ فِي اللَّحْظَةِ نَفْسُهَا مِنَ التَّارِيخِ الَّتِي سَأَحْرَكُ فِيهَا هَذِهِ الْعَصَا، سَيَبْدَأُ هُوَ بِتَحْرِيكِ الْكُرَةِ الْبَيْضَاءِ؟ وَمِنْ أَيْنَ

نَعْلَمُ أَنَّ رُوحًا شَرِيْرًا غَيْرَ مَنْظُورٍ لَمْ يُحَرِّكِ الْكُرَّةَ مِنْ تَحْتِ الطَّاوِلَةِ بَعْدَ اصْطِدَامِ الْكُرَّةِ الْبَيْضَاءِ بِالْكُرَّةِ الْمَنْشُودَةِ؟
وَمِنْ أَيْنَ نَعْلَمُ أَنَّ حَرَكَةَ الْكُرَّةِ الْبَيْضَاءِ هِيَ مَا تَسَبَّبَ فِي حَرَكَةِ الْكُرَّةِ الْمَنْشُودَةِ؟

قَدْ يَبْدُو هَذَا سَخِيفًا لِلْعَايَةِ. وَتَبْدُو الْفَلَسَفَةُ أَحْيَانًا سَخِيفَةً تَمَامًا. لَكِنَّ هَيْوَمَ قَامَ هُنَا بِتَحْلِيلِ جَادِّ لِشَيْءٍ أَسَاسِيٍّ
لِلْمَعْرِفَةِ وَالْعِلْمِ، لِأَنَّنا مُنْشَعِلُونَ كَثِيرًا فِي الْعِلْمِ بِمَسْأَلَةِ الْأَسْبَابِ. وَحِينَ نَتَحَدَّثُ عَنِ السَّبَبِ الْأَسَاسِيِّ لِكُلِّ الْوَاقِعِ
وَكُلِّ الْكُونِ، فَإِنَّا نَتَحَدَّثُ عَنِ السَّبَبِيَّةِ بِكُلِّ جَدِيَّةٍ. يَقُولُ هَيْوَمُ إِنَّا لَا نَرَى السَّبَبَ الْمُبَاشِرَ، بَلْ نَرَى عِلَاقَاتٍ مِنْ
التَّلَاصِقِ، أَيَّ أَحَدًا مُتَلَاصِقَةً، أَوْ مُتَتَابِعَةً. لَسْنَا نَرَى الصِّلَةَ، بَلْ كُلُّ مَا نَرَاهُ هُوَ تَسْلُسُلٌ مِنَ الْأَحْدَاثِ. أَتَفْهَمُونَ
ذَلِكَ؟ فَهُوَ يَقُولُ إِنَّا نَفْتَرِضُ السَّبَبِيَّةَ. وَهَذَا أَمْرٌ طَبَقَهُ الْعِلْمُ مِنْذُ أَيَّامِ طَالِيَس، وَحَتَّى قَبْلَ طَالِيَس، فِي الْيُونَانِ الْقَدِيمَةِ.
فَنَحْنُ مِنَ ابْتِدَاعِ فِكْرَةِ السَّبَبِيَّةِ.

تَوَصَّلَ الْبَعْضُ إِلَى الْإِسْتِنْتِاجِ بِأَنَّ تَحْلِيلَ هَيْوَمِ الدَّقِيقِ لِلْسَّبَبِيَّةِ وَالشُّكُوكِيَّةِ فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِالْإِدْرَاكِ الْحِسِّيِّ يَهْدِمُ مَبْدَأَ أَوْ
قَانُونَ السَّبَبِ وَالتَّيْجَةِ، لِدَرَجَةِ أَنَّهُ يُمَكِّنُنَا الْقَوْلَ الْآنَ، وَفَقَ مَنَهَجِنَا الْعِلْمِيِّ الْمُتَطَوَّرِ، إِنَّهُ يُمَكِّنُ لِأَيِّ شَيْءٍ أَنْ يَأْتِيَ
مِنْ أَيِّ شَيْءٍ، وَيُمَكِّنُ لِأَيِّ شَيْءٍ أَنْ يَحْدُثَ، وَلِلْأُمُورِ أَنْ تَحْدُثَ دُونَ سَبَبٍ. وَيُمَكِّنُ لِلْأَشْيَاءِ الْمَادِّيَّةِ أَنْ تَظْهَرَ دُونَ
سَبَبٍ. لِأَنَّ دَيْفِيدَ هَيْوَمِ أَثْبَتَ ذَلِكَ فِي مَجَالِ الْفَلَسَفَةِ. يَحْتَكِمُ هُوَ لِأَنَّ هَيْوَمَ لِدَعْمِ لُجُوبِهِمْ إِلَى الْعَدَمِ أَوْ الصُّدْفَةِ أَوْ
غَيْرِ ذَلِكَ. أَتَذْكُرُونَ مَا قَالَهُ "هَيْوَمُ" عَنِ الصُّدْفَةِ؟ قَرَأْتُ لَكُمْ الْمَقْطَعِ الَّذِي قَالَ فِيهِ "هَيْوَمُ" إِنَّ الصُّدْفَةَ هِيَ بِبَسَاطَةِ
كَلِمَةٍ بَدِيلَةٌ عَنِ جَهْلِنَا بِالْأَسْبَابِ الْحَقِيقِيَّةِ. يَكْشِفُ لَنَا ذَلِكَ أَمْرًا عَنِ هَيْوَمِ نَعْمَلُ عَنْهُ عَادَةً. لَمْ يَقْضِ هَيْوَمُ عَلَى
السَّبَبِيَّةِ. وَلَمْ يَقْضِ عَلَى قَانُونِ السَّبَبِ وَالتَّيْجَةِ. وَلَمْ يُنْكَرْ وُجُودَ أَسْبَابٍ لِلْأَشْيَاءِ. بَلْ كُلُّ مَا قَالَهُ هُوَ إِنَّا نَجْهَلُ السَّبَبَ
الْمُحَدَّدَ فِي لَحْظَةٍ مُعَيَّنَةٍ. هَذَا نَوْعٌ مِنَ الشُّكُوكِيَّةِ. لَكِنَّهَا خُطْوَةٌ جَرِيئَةٌ، وَقَفْزَةٌ نَوْعِيَّةٌ، أَنْ نَقُولَ إِنَّهُ يُمَكِّنُ وُجُودَ
نَتَائِجِ دُونَ أَسْبَابٍ.

ذَكَرْتُ مِنْذُ قَلِيلٍ كِتَابِي بِعُنْوَانِ "الدِّفَاعِيَّاتُ الْكَلَّاسِيكِيَّةُ"، الَّذِي قَدَّمْتُ إِحْدَى الْمَجَلَّاتِ الْأَكَادِيمِيَّةِ نَقْدًا لَهُ، وَكَتَبْتُ
أَحَدَ الْفَلَسَفَةِ مُثْنِيًا بِشِدَّةٍ عَلَى الْكِتَابِ، لَكِنَّهُ قَالَ إِنَّ لَدَيْهِ اعْتِرَاضًا وَاحِدًا. وَأَرْسَلَ إِلَيَّ نُسخَةً مِنْ مَقَالِهِ النَّقْدِيِّ الَّذِي
نُشِرَ، وَالَّذِي تَضَمَّنَ اعْتِرَاضًا وَاحِدًا فَحَسَبُ بِشَأْنِ الْكِتَابِ. وَأَدَلَّ بِهِذَا التَّصْرِيحِ وَقَالَ: "مُشْكَلَةُ سَبْرُول" - هُوَ يَعْنِينِي
- قَالَ: "مُشْكَلَةُ سَبْرُول هِيَ أَنَّهُ لَا يَقْبَلُ بِنَتِيْجَةِ بِلَا سَبَبٍ". قَرَأْتُ ذَلِكَ، وَفَكَرْتُ فِي تَفْجُرِ الْكُونِ إِلَى حَيَزِ الْوُجُودِ،
وَالْأَنْوَاعِ الْخُمْسَةِ مِنَ اللَّاشَيْءِ، إِلَى آخِرِهِ. ثُمَّ كَتَبْتُ لَهُ رِسَالَةً لَطِيفَةً، شَكَرْتُهُ فِيهَا عَلَى ثَنَائِهِ، وَقُلْتُ: "لَكِنَّ عَيَّ
الْإِعْتِرَافِ بِمُخْطِئِي: سَبْرُول لَا يَقْبَلُ بِنَتِيْجَةِ بِلَا سَبَبٍ. أَنْتَ مُحِقٌّ تَمَامًا فِي ذَلِكَ". وَقُلْتُ: "لَكِنَّكَ ذَكَرْتَ ذَلِكَ وَكَأَنَّ
انْتِقَادًا، فِي حِينِ ظَنَنْتُ أَنَّهُ مِنَ الْحَيِّدِ أَلَّا أَقْبَلَ بِوُجُودِ نَتِيْجَةِ بِلَا سَبَبٍ. سَأَتُوبُ قَطْعًا عَنِ هَذِهِ الرِّذِيلَةِ فَقَطْ إِنْ كَرَسْتَ
الْوَقْتَ لِتُقَدِّمَ لِي مِثَالًا وَاحِدًا فِي كُلِّ الْوَاقِعِ وَكُلِّ التَّارِيخِ لِنتِيْجَةِ بِلَا سَبَبٍ". لَمْ أَتَلَقَّ رَدًّا قَطْ، وَلَا أَظُنُّ أَنِّي سَأَتَلَقَّاهُ يَوْمًا،

لِأَنَّ تِلْكَ حَالَةً عَفَا فِيهَا هَذَا الْفَيْلَسُوفُ وَاسِعُ الْإِطْلَاعِ وَالصَّلِيْعُ وَالْبَارِعُ. فَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّهُ لَا يُمَكِّنُ أَنْ تُوجَدَ نَتِيْجَةٌ بِلَا سَبَبٍ. وَلَيْمَ لَا يُمَكِّنُ أَنْ تُوجَدَ نَتِيْجَةٌ بِلَا سَبَبٍ؟ لِأَنَّ كَلِمَةَ "نَتِيْجَةٌ" - بِحُكْمِ تَعْرِيفِهَا - هِيَ مَا يَنْتُجُ عَنْ سَبَبٍ سَابِقٍ. وَبِحَسَبِ قَانُونِ السَّبَبِيَّةِ - "لِكُلِّ نَتِيْجَةٍ سَبَبٌ، أَوْ لِكُلِّ سَبَبٍ نَتِيْجَةٌ" - يَكُونُ هَذَا التَّعْرِيفُ صَحِيْحًا تَحْلِيْلِيًّا. فَلَيْسَ فِي الْحَبْرِ شَيْءٌ يَزِيدُ عَمَّا تَضَمَّنَهُ الْمُبْتَدِئُ بِالْفِعْلِ. يُشْبِهُ ذَلِكَ قَوْلَنَا: "لِكُلِّ الْمُتَلَثَّاتِ ثَلَاثَةٌ أَضْلَاحٌ"، أَوْ قَوْلَنَا "الْعَازِبُونَ رِجَالٌ غَيْرُ مُتَزَوِّجِينَ". لَا جَدِيدَ أُضِيْفَ هُنَا. فَقَانُونُ السَّبَبِيَّةِ لَيْسَ سِوَى مَبْدَأٍ رَسْمِيٍّ. وَهُوَ لَيْسَ سِوَى أَحَدِ تَطْبِيقَاتِ قَانُونِ عَدَمِ التَّنَاقُضِ. لِأَنَّهُ إِنْ كَانَتْ التَّتِيْجَةُ نَتِيْجَةً، فَهَذَا يَعْنِي أَنَّ لَهَا سَبَبًا. وَإِذَا كَانَ شَيْءٌ مَا سَبَبًا بِالْحَقِيْقَةِ، فَهَذَا يَعْنِي أَنَّهُ أَثْمَرٌ نَتِيْجَةٌ. وَإِنْ لَمْ يُثْمَرْ نَتِيْجَةً، فَلَا يُمَكِّنُ أَنْ نُسَمِّيَهُ سَبَبًا. وَلَوْ كَانَ شَيْءٌ بِلَا سَبَبٍ، فَلَا يُمَكِّنُ أَنْ نُسَمِّيَهُ بِالنَّتِيْجَةِ. هَلْ هَذَا وَاضِحٌ؟ أَعْنِي أَنَّ الْأَمْرَ بَسِيْطًا!

لَكِنَّ الْأَمْرَ لَيْسَ بِهَذِهِ الْبَسَاطَةِ، لِأَنَّ الْخُلْطَ اللَّغَوِيَّ يَحْدُثُ هُنَا مُجَدِّدًا لَدَى الْبَعْضِ مِنْ أَكْبَرِ الْمُفَكِّرِينَ عَلَى مَرِّ الْعُصُورِ. أَفَكَّرَ مَثَلًا فِي رَجُلٍ كَانَ عَمَلًا حَقِيْقِيًّا فِي مَجَالِ الرِّيَاضِيَّاتِ وَالْفَلَسَفَةِ فِي الْإِنْجِلْتِرَا فِي الْقَرْنِ الْعَشْرِينَ - وَهُوَ بَرْتِرَانْدُ رَاسِلِ (Bertrand Russell). أَلَّفَ رَاسِلٌ كِتَابًا صَغِيرًا بِعُنْوَانِ "لَمْ لَسْتُ مَسِيْحِيًّا؟" (*Why I am Not a Christian*)، وَهُوَ كِتَابٌ لَافِتٌ وَمُذْهِلٌ، يُبَدِي بَعْضَ الْإِعْتِرَاضَاتِ الْمُهِمَّةِ عَلَى الْإِيْمَانِ الْمَسِيْحِيِّ. لَكِنَّ فِي أَوَائِلِ الْكِتَابِ رَوَى عَنِ اخْتِبَارٍ مَرَّ بِهِ فِي شَبَابِهِ. قَالَ إِنَّهُ نَشَأَ مُفْتَرِضًا وُجُودَ اللَّهِ. وَكَانَ يَتَطَلَّعُ إِلَى الطَّبِيعَةِ وَيَسْتَنْتَبِجُ وَجُوبَ وُجُودِ عِلَّةٍ أَرْزَلِيَّةٍ لِكُلِّ هَذَا. هَذَا جَيِّدٌ حَتَّى الْآنَ. وَحِينَ بَلَغَ الثَّامِنَةَ عَشَرَ مِنْ عُمُرِهِ، قَرَأَ مَقَالًا بِقَلَمِ جُونِ سِتِيوَارْتِ مِيلٍ، اعْتَرَضَ فِيهِ "مِيلٌ" عَلَى الْحُجَّةِ الْكُونِيَّةِ الْمُؤَيَّدَةِ لُجُودِ اللَّهِ، أَيْ الْفِكْرَةَ الْقَائِلَةَ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْعِلَّةُ الْأُولَى لِكُلِّ مَا هُوَ مَوْجُودٌ. وَالْإِعْتِرَاضُ الَّذِي أَبْدَاهُ جُونِ سِتِيوَارْتِ مِيلٍ فِي هَذَا الْمَقَالِ كَانَ: إِذَا كَانَ لَا بُدَّ مِنْ وُجُودِ سَبَبٍ لِكُلِّ شَيْءٍ، فَلَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ لِلَّهِ نَفْسِهِ سَبَبٌ. وَمَا سَبَبَ اللَّهُ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ لَهُ سَبَبٌ. وَبِهَذَا نَضِيعُ فِي رُجُوعٍ لَانِهَائِيٍّ لِلْوَرَاءِ. وَتِلْكَ هِيَ مُشْكَلَةُ الْخُلُقِ الدَّائِيٍّ أَوْ الْكَائِنِ غَيْرِ الْمَحْدُودِ، إِلَى حَدِّ كَبِيرٍ. إِذَا كَانَ لَا بُدَّ مِنْ وُجُودِ سَبَبٍ لِكُلِّ شَيْءٍ، فَلَا بُدَّ إِذَنْ أَنْ يَكُونَ لِلَّهِ سَبَبٌ. وَلَا حِقَّاءَ، أَدَلَّى رَاسِلٌ بِهَذَا التَّعْلِيْقِ الْقَائِلِ: "إِذَا كَانَ لَا بُدَّ مِنْ وُجُودِ سَبَبٍ لِكُلِّ شَيْءٍ، فَلَا بُدَّ إِذَنْ أَنْ يَكُونَ لِلَّهِ سَبَبٌ. وَإِذَا كَانَ مِنَ الْمُمْكِنِ لِشَيْءٍ أَنْ يَكُونَ بِلَا سَبَبٍ، فَمَا يَنْطَبِقُ عَلَى اللَّهِ يَنْطَبِقُ عَلَى الْعَالَمِ".

مَا رَأَيْتُ فِي هَذِهِ الْحُجَّةِ؟ مَا رَأَيْتُ فِي الْمَنْطِقِ الَّذِي اسْتَحْدَمَهُ رَاسِلٌ؟ أَتَدْرُونَ أَنَّنَا قُلْنَا إِنَّهُ لَا يُمَكِّنُ لِلْحُجَجِ أَنْ تَكُونَ صَحِيْحَةً أَوْ خَاطِئَةً، وَإِنَّمَا الْحُجَجُ هِيَ إِمَّا مَشْرُوعَةٌ أَوْ غَيْرُ مَشْرُوعَةٍ؟ هَلْ حُجَّةُ رَاسِلِ مَشْرُوعَةٌ؟ نَعَمْ. سَبَقَ أَنْ قُلْتُ إِنَّ الْجَوَابَ هُوَ نَعَمْ. كُنْتُ أَنْتَظِرُ السُّؤَالَ. هَا قَدْ تَدَكَّرْتُمْ. حَسَنًا، هَذِهِ حُجَّةٌ مَشْرُوعَةٌ لِأَنَّهُ مِنَ الصَّوَابِ أَنَّهُ إِنْ كَانَ لَا

بَدَّ مِنْ وُجُودِ سَبَبٍ لِكُلِّ شَيْءٍ فَلَا بُدَّ إِذْنًا أَنْ يَكُونَ لِلَّهِ سَبَبٌ، أَلَيْسَ كَذَلِكَ؟ ثُمَّ تَابَعَ قَائِلًا: "إِذَا كَانَ مِنَ الْمُمْكِنِ لِشَيْءٍ أَنْ يَكُونَ بِلا سَبَبٍ، فَمَا يَنْطَبِقُ عَلَى اللَّهِ يَنْطَبِقُ عَلَى الْعَالَمِ". الْفَرْضِيَّةُ الثَّانِيَّةُ يَشُوبُهَا بَعْضُ الرِّيْبَةِ. لَكِنِّي سَأَقْبَلُ بِالْجُزْءِ الْأَوَّلِ مِنَ الْحُجَّةِ. إِنْ كَانَ لَا بُدَّ مِنْ وُجُودِ سَبَبٍ لِكُلِّ شَيْءٍ، فَلَا بُدَّ إِذْنًا أَنْ يَكُونَ لِلَّهِ سَبَبٌ. الْمَشْكَلَةُ هُنَا هِيَ أَنَّ قَانُونَ السَّبَبِيَّةِ لَا يَقُولُ إِنَّهُ لَا بُدَّ مِنْ وُجُودِ سَبَبٍ لِكُلِّ شَيْءٍ. مَا مِنْ قَانُونٍ يَقُولُ إِنَّهُ لَا بُدَّ مِنْ وُجُودِ سَبَبٍ لِكُلِّ شَيْءٍ. يَقُولُ الْقَانُونُ إِنَّهُ لَا بُدَّ مِنْ وُجُودِ سَبَبٍ لِكُلِّ نَتِيْجَةٍ، بِتَغْيِيرٍ آخَرَ، لَا بُدَّ مِنْ وُجُودِ سَبَبٍ لِكُلِّ كَائِنٍ اعْتِمَادِيٍّ. هَذَا هُوَ مَعْنَى الْاعْتِمَادِيَّةِ. هَذَا لَا يَعْنِي أَنَّ كُلَّ مَا هُوَ مَوْجُودٌ هُوَ اعْتِمَادِيٌّ أَوْ هُوَ نَتِيْجَةٌ. فَالْحَلْقُ الدَّائِيُّ اسْتِحَالَةً مَنْطِقِيَّةً، لَكِنَّ دَاتِيَّةَ الْوُجُودِ لَيْسَتْ كَذَلِكَ. وَمَا تُؤَكِّدُهُ الْمَسِيحِيَّةُ هُوَ أَنَّ اللَّهَ كَائِنٌ أَرْزَلِيٌّ، مَوْجُودٌ بِدَاتِهِ. فَهُوَ لَيْسَ نَتِيْجَةٌ، وَلَيْسَ اعْتِمَادِيًّا، أَوْ مَخْلُوقًا. وَلَمْ تَكُنْ لَهُ بَدَايَةٌ، وَلَمْ يُسَبِّبْهُ شَيْءٌ. فَهُوَ أَرْزَلِيٌّ. هَلْ يَنْتَهِكُ هَذَا الْمَفْهُومُ أَيَّ قَانُونٍ فِي الْمَنْطِقِ؟ لَا. فَمَا مِنْ شَيْءٍ غَيْرِ مَنْطِقِيٍّ فِي وُجُودِ كَائِنٍ أَرْزَلِيٍّ لَمْ يُسَبِّبْهُ شَيْءٌ. وَفِي الْوَاقِعِ، وَمِثْلَمَا أَتَيْتُ الْأَكُوْبِيْنِي، لَيْسَ وُجُودُ كَائِنٍ كَهَذَا مُمَكِّنًا فَحَسْبُ، بَلْ مِنَ الصَّرُورِيِّ مَنْطِقِيًّا أَنْ يُوجَدَ كَائِنٌ كَهَذَا كَيْ يُوجَدَ أَيُّ شَيْءٍ عَلَى الْإِطْلَاقِ. فَلَا بُدَّ لِشَيْءٍ مَا أَنْ يَتَمَتَّعَ بِقُوَّةِ الْوُجُودِ بِاسْتِقْلَالٍ عَنِ أَيِّ سَبَبٍ سَابِقٍ، وَإِلَّا لَمَا وَجَدَ شَيْءٌ.

أَصِلْ بِذَلِكَ إِلَى الْجُزْءِ الثَّانِي. مَا حَدَثَ هُوَ أَنَّ جُونِ سْتِيوارْتِ مِيلَ غَيَّرَ تَعْرِيفَ قَانُونِ السَّبَبِيَّةِ وَقَالَ: "إِنْ كَانَ لَا بُدَّ مِنْ وُجُودِ سَبَبٍ لِكُلِّ شَيْءٍ، فَلَا بُدَّ إِذْنًا أَنْ يَكُونَ لِلَّهِ سَبَبٌ". يُشْبِهُ ذَلِكَ صَبِيًّا صَغِيرًا سَأَلَهُ أَحَدُهُمْ: "مَنْ سَبَبِ اللَّهُ؟" أَوْ "مَنْ صَنَعَ اللَّهُ؟" فَأَجَابَ: "اللَّهُ صَنَعَ نَفْسَهُ" لَا، لَا، لَا! فَحَتَّى اللَّهُ نَفْسُهُ لَا يَخْلُقُ نَفْسَهُ. وَحَتَّى اللَّهُ نَفْسُهُ لَا يَقْدِرُ أَنْ يَكُونَ نَفْسُهُ. فَالْتَوَلُّدُ يَقْدِرُ أَنْ يَكُونَ وَلَا يَكُونَ فِي الْوَقْتِ نَفْسِهِ وَفِي الْعِلَاقَةِ نَفْسِهَا. فَإِذَا كَانَ هُنَاكَ وَقْتُ لَمْ يَكُنْ فِيهِ شَيْءٌ، فَالْتَوَلُّدُ التِّلْقَائِيُّ لِلْكَوْنِ، وَالتَوَلُّدُ التِّلْقَائِيُّ لِإِلَهِ غَيْرِ مُمَكِّنِينَ. وَحَتَّى الْوَقْتُ نَفْسُهُ لَا يَتَمَتَّعُ بِالْقُدْرَةِ الْمُعْجَزِيَّةِ عَلَى الْإِثْبَانِ بِاللَّهِ مِنَ الْعَدَمِ. كُلُّ مَا هُوَ مَوْجُودٌ إِمَّا مَوْجُودٌ بِدَاتِهِ أَوْ سَبَبُهُ شَيْءٌ آخَرَ. هَذَانِ هُمَا الْخِيَارَانِ الْوَحِيدَانِ. لَكِنَّ "مِثْل" قَالَ إِنَّهُ لَا بُدَّ مِنْ وُجُودِ سَبَبٍ لِكُلِّ مَا هُوَ مَوْجُودٌ. هَذَا غَيْرٌ صَحِيحٌ. وَلِلْأَسْفِ، حِينَ كَانَ بَرْتِرَانْدُ رَاسِلٌ شَابًّا سَرِيْعَ التَّأَثُّرِ، فِي الثَّامِنَةِ عَشَرَ، أَفْتَعَتْهُ حُجَّةٌ خَاطِئَةٌ قَدَّمَهَا فَيْلَسُوفُ بَارزُ، هُوَ جُونِ سْتِيوارْتِ مِيلَ. وَتَمَسَّكَ بِهَذَا الرَّأْيِ طَوَالَ حَيَاتِهِ.

الْجُزْءُ الثَّانِي مِنْ تَصْرِيحِهِ هُوَ: "وَإِذَا كَانَ مِنَ الْمُمْكِنِ لِشَيْءٍ أَنْ يُوجَدَ بِلا سَبَبٍ، فَمَا يَنْطَبِقُ عَلَى اللَّهِ يَنْطَبِقُ عَلَى الْعَالَمِ". ذَكَرْتُ أَنَّي لَنْ أَتَحَدَّثَ عَنِ الْبَدِيلِ الْآخَرَ لِتَفْسِيرِ الْحَلْقِ، وَهُوَ أَنَّ الْعَالَمَ أَرْزَلِيٌّ. اخْتَلَفَ مَعَ مَا يَقُولُهُ بَرْتِرَانْدُ رَاسِلٌ: "وَإِذَا كَانَ مِنَ الْمُمْكِنِ لِشَيْءٍ أَنْ يُوجَدَ بِلا سَبَبٍ، فَمَا يَنْطَبِقُ عَلَى اللَّهِ يَنْطَبِقُ عَلَى الْعَالَمِ". هَلْ هَذَا صَحِيحٌ؟ دَعُونِي أَصْبِحُ ذَلِكَ كَالثَّالِي. إِذَا كَانَ لَا بُدَّ مِنْ وُجُودِ شَيْءٍ بِلا سَبَبٍ - وَتَنْفِقُ مَعَ بَرْتِرَانْدُ رَاسِلَ، فَلَا بُدَّ مِنْ وُجُودِ شَيْءٍ بِلا سَبَبٍ - فَمَا يَنْطَبِقُ عَلَى اللَّهِ يَنْطَبِقُ عَلَى سَبْرُولِ. مَا الْخُطْبُ فِي ذَلِكَ؟ سَبْرُولُ لَهُ بَدَايَةٌ. سَبْرُولُ مَحْدُودٌ. سَبْرُولُ مُسْتَمَدٌّ مِنْ آخَرَ. سَبْرُولُ مُعْتَمِدٌ عَلَى آخَرَ. سَبْرُولُ اعْتِمَادِيٌّ. سَبْرُولُ قَابِلٌ لِلتَّغْيِيرِ. سَبْرُولُ يَفْتَقِرُ إِلَى قُوَّةِ الْكَائِنِ الصَّرُورِيِّ، مِثْلَمَا يَفْتَقِرُ كُلُّ شَيْءٍ مَادِّيٍّ آخَرَ إِلَى قُوَّةِ الْكَائِنِ الصَّرُورِيِّ. إِذْنًا، لَيْسَ صَحِيحًا أَنْ مَا يَنْطَبِقُ عَلَى اللَّهِ يَنْطَبِقُ عَلَى

العالم. نَحْتاجُ إِلَى كَاتِبٍ أَرَلِّي، وَذَاتِي الْوُجُودِ، وَمُسْتَقَلًّا، لَيْسَ هُوَ نَفْسُهُ نَتِيَجَةً. وَلَا شَيْءَ أَقَلَّ مِنْ ذَلِكَ، أَيُّهَا الْأَحِبَّاءُ، يَقْدِرُ أَنْ يُنْقِدَ ظَوَاهِرَ الْكُونِ الَّذِي نَعِيشُ فِيهِ.

الدُّكْتُورُ أَرْ. سِي. سَبْرُولُ هُوَ مُؤَسَّسُ هَيْئَةِ خِدْمَاتِ لِيْجُونِيَرِ، وَكَانَ أَحَدَ رُعاةِ كَنِيْسَةِ الْقِدِّيسِ أَنْدْرُو (St. Andrews Chapel) فِي مَدِينَةِ سَانْفُورْدِ بُولَايَةِ فُلُورِيدَا، كَمَا كَانَ أَوَّلَ رَئِيسِ لِكَلِّيَّةِ الْكِتَابِ الْمُقَدَّسِ لِلإِصْلَاحِ (Reformation Bible College). وَهُوَ مُؤَلَّفٌ أَكْثَرَ مِنْ مِائَةِ كِتَابٍ، بِمَا فِي ذَلِكَ "كُنَّا لَاهَوْتِيُونَ" و"أَدَهَشَنِي الأَلَمُ".